الرسالة الأولى

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

[الأنعام : ١٥٢]

عبد العزيز بن ناصر الجليّل

أهمية الموضوع

إن أهمية الموضوع تأتي من أنه مفتاح الحق ، وجامع الكلمة ، والمؤلف بين القلوب ؛ لأن من أقوى أسباب الاختلاف بين العباد : الظلم والاعتداء ، وفقدان العدل والإنصاف . ولو جاهد المسلم نفسه لتحقيق صفة العدل على نفسه ومع الناس ؛ فإن كثيراً من المشاكل التي تحصل بين المسلمين ـ سواء منها الفردية أو الجماعية ـ ستزول وتحل بإذن الله ؛ وذلك لأن سبب الانحراف عن الحق والإصرار على الأخطاء : إما الجهل وإما الظلم ؛ فالجهل علاجه العلم ، والظلم علاجه العدل والإنصاف والقسط .

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يرجع أسباب الفرقة والتعدي والتعصب إلى الأمرين المذكورين سابقاً ؛ فتراه يقول : « الإنسان خُلق ظلوماً جهولاً ؛ فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله وتركه ، وإعطائه ومنعه ، وأكله وشربه ، ونومه ويقظته .

وكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ؛ فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل ، وإلا كان منه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] ، فإذا كان هذه حاله

في آخر حياته أو قريباً منها، فكيف حال غيره؟! »[١] اهـ.

وقال رحمه الله : « والعدل هو الاعتدال ، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده ، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه ، والظلم خلاف العدل ، فلم يعدل على نفسه بل ظلمها ، فصلاح القلب في العدل ، وفساده في الظلم ، وإذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم، كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه ، فمنه العمل ، وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر ، قال تعالى : ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. . . »[٢] ، إلى أن قال في الجزء نفسه ص ٩٩ :

« مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل ، فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ، ومرضه من الزيغ والظلم والإعراض ، والعدل المحض في كل شيء متعذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل ؛ولهذا يقال : هذا أمثل ، ويقال للطريقة السلفية : الطريقة المثلى .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [النساء: ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط . وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس » اهـ.

وهنا نرى أن شيخ الإسلام قد بيَّن أهمية العدل ، وأنه أساس النجاة في

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٤/ ٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٩٨).

الدنيا والآخرة ، وقد قسَّمه حسب الأهمية إلى : أعظم العدل ؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس ، ثم العدل على النفس، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في ثنايا هذا البحث .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضاً أهمية العدل مع الخصوم والمفارقين لأهل السنة ؛ حيث قال :

« وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ، ويرحمون الخلق، ويتبعون الرسول ﷺ ولا يبتدعون ، ومن اجتهد فأخطأ خطأً يعذره فيه الرسول ﷺ عذروه . . . إلى أن قال : «والله يحب الكلام بعلم وعدل ، ويكره الكلام بجهل وظلم ، كما قال النبي ﷺ : « **القضاة ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة : رجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة**»[(١)] .

وقد حرم سبحانه وتعالى الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص القول عليه بلا علم بالنهي ؛ فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأمر بالعدل على أعداء المسلمين ؛ فقال تعالى : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ**

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٧٣) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥).
والحديث في صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١).

﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] »[١].

إذن مما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا أهمية العدل في القول والعمل، وأن الأمانة التي أبت حملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها، لا يستطيع أن يحملها الإنسان إلا بأن يتغلب على صفة الجهل، بالعلم والتفقه في دين الله عز وجل، وبأن يتغلب على صفة الظلم، بالعدل والإنصاف.

ومع ذلك - وكما أشار شيخ الإسلام - فلن يستطيع أن يكمل العدل كله، ولا أن ينفك عن الجهل كله؛ ولذلك فهو في حاجة لأن يتوب الله عليه ويغفر له تقصيره وضعفه، وهذا هو ما يفهم من آية الأمانة في سورة الأحزاب؛ حيث ذكر الله عز وجل لنا صنفين من الناس:

الصنف الأول: المؤمنون الذين بذلوا جهدهم في طلب العلم المنافي للجهل، والعدل المنافي للظلم، فاستحقوا من الله عز وجل ألا يؤاخذهم بما لم يستطيعوا تحقيقه من العلم والعدل.

الصنف الثاني: أولئك المشركون والمنافقون الذين أعرضوا عن دين الله عز وجل فلم يتعلموه، وأعرضوا عن العدل والقسط، فسقطوا في ظلمات الجهل والظلم، ووقعوا في الشرك والنفاق، فاستحقوا العذاب الأليم، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦).

﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين أعانهم على حمل الأمانة وغفر لهم تقصيرهم .

* * *

تعريف العدل
ومنزلته في الكتاب والسنة

قال في لسان العرب : العدل : ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور . عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً ، وهو عادل من قوم عدول . . وفي أسماء الله الحسنى (**العدل**) وهو الذي لا يميل فيجور في الحكم. والعدل : الحكم بالحق .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل فأجابه : إن العدل على أربعة أنحاء : العدل في الحكم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** ﴾ [المائدة: ٤٢] ، والعدل في القول ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدل: الفدية ، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ** ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والعدل في الإشراك ، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١] أي يشركون .

وفلان يعدل فلاناً : أي يساويه ، وعدّل الموازين والمكاييل : سوّاها، وتعديل الشيء : تقويمه ، والاعتدال : توسط حال بين حالين في كم وكيف، كقولهم : جسم معتدل بين الطول والقصر ، ماء معتدل بين الحار والبارد . . . إلخ ، والمعادلة : الشك في أمرين ، يقال : أنا في عدال في هذا الأمر ؛ أي : في شك منه أأمضي عليه أم أتركه؟ . اهـ . (باختصار) .

والآيات والأحاديث الواردة في ذكر العدل، والحث عليه، والتحذير

من ضده كثيرة جداً ، لكننا نقتصر على بعضها مع نقل بعض أقوال علماء التفسير حولها .

الآيات الواردة في ذلك :

الآية الأولى :

يقول الله عز وجل في سورة آل عمران : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

[آل عمران : ١٨]

يعلق شيخ الإسلام على قوله تعالى : ﴿ **قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ فيقول :

« فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان ، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً ، ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط ، ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه ، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل »[١] .

ويعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية في ظلال القرآن ؛ فيقول :

« وتدبير الله عز وجل لهذا الكون والحياة متلبس دائماً بالقسط وهو العدل ، فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٩) .

الناس ، وبيَّنه في كتابه ، وإلا فلا عدل ،ولا قسط ، ولا استقامة ، ولا تناسق، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان ، وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والصراع . . . » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : في الصفحة نفسها :

« وأنه حيث حكم في حياة الناس منهج آخر من وضع البشر لازمه جهل البشر وقصور البشر ، كما لازمه الظلم والتناقض في صورة من الصور : ظلم الفرد للجماعة ، أو ظلم الجماعة للفرد ، أو ظلم طبقة لطبقة ، أو ظلم أمة لأمة أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله عز وجل وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء ، وهو إله جميع العباد، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ »[1] اهـ .

الآية الثانية :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

[النساء: ١٣٥]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية :

« يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أي العدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين ،

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٥) ط. دار المعرفة اللبنانية .

يقول: ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّه ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: اشهد بالحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر، فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِين﴾ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد الضرر عليهم؛ فإن الحق حاكم على كل أحد.

وقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، فالله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿ فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي: لا يحملنكم الهوى والمعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه الرسول ﷺ على أهل خيبر يخرص عليهم ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض »[1] اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٢) ط. دار الفكر. وحادثة ابن رواحة رواها بنحوها أحمد (٣/ ٣٦٧) من حديث جابر، وأبو داود في البيوع (٣٤١٠) من حديث ابن عباس.

ويعلق سيد قطب على هذه الآية نفسها بقوله :

« إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال ، وفي كل مجال ؛ القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، وفي هذا الحق يتساوى عند الله عز وجل المؤمنون وغير المؤمنين ، ويتساوى الأقارب والأباعد ويتساوى الأعداء والأصدقاء ، والأغنياء والفقراء . .

والمنهج الرباني يجنِّد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً ، وهي محاولة شاقة أشق بكثير من نطقها باللسان . . . » إلى أن قال : «ثم هو يجنِّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية ، أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ؛ تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده ، بحكم الرواسب الاجتماعية ، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده . . . »[1] .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٨] .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٥٤٩) ط . دار المعرفة .

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية بقوله :

« لقد نهى الله عز وجل الذين آمنوا من قبل، أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء ، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة ، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم ، فها هم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ، وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق ، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده، تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض . . » إلى أن قال رحمه الله تعالى :

« إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله عز وجل؛ حين تقوم لله متجردة عن كل ما عداه، وحين تستشعر تقواه وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور»[1] اهـ (باختصار).

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآية ، فيقول :

« وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشري ـ وقد ربطه بالله ابتداءً ـ إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشري ؛ الضعف الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكافل والامتداد ، بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ،

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٦٧) ط. دار المعرفة .

وفي قوة القرابة سند لضعفه، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وإن امتدادها جيلاً بعد جيل حماية لامتداده ، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم أو القضاء بينهم وبين الناس.

وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده، ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوي القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو سبحانه أقرب إلى المرء من حبل الوريد»[1] اهـ .

أما الأحاديث الواردة في الحث على العدل ، وتجنب الظلم والبغي فكثيرة جداً نقتصر على بعضها :

الحديث الأول :

ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال : «نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « **أكل ولدك نحلت مثله ؟** » فقال : لا ، فقال : « **اتقوا الله واعدلوا في أولادكم** » ، وقال : «**إني لا أشهد على جور**» . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة »[2] .

الحديث الثاني :

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ يعدل بين اثنين صدقة** »[3] .

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٤٢٦) ط. دار المعرفة .

(٢) رواه البخاري في الهبة (٢٥٨٧)، ومسلم في الهبات (١٦٢٣).

(٣) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٧)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٩).

الحديث الثالث :

ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا؛ لا نخاف في الله لومة لائم »، وزاد النسائي : «وعلى أن نقول بالعدل أين كنا»[1] .

الحديث الرابع :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا** »[2] .

الحديث الخامس :

روى النسائي والحاكم في مستدركه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء : « **اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ،**

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩٩)، (٧٢٠٠)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩) واللفظ له ، والنسائي في البيعة على السمع والطاعة (٧/ ١٣٧) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) باب: فضيلة الإمام العادل .

وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »[1] .

* * *

(١) رواه النسائي في كتاب السهو (٣/ ٥٥). وهو في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧)، (١٢٣٨).

أقسام العدل

ينقسم العدل حسب متعلقاته إلى الأقسام التالية :

١ ـ أعظم العدل :

وهو توحيد الله عز وجل لا شريك له ؛ وهو الحق الذي قامت به السموات والأرض ، ومن أجله خلق الله الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الدخان : ٣٨، ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ [الأحقاف : ٣] .

ويقابل هذا القسم من العدل أعظم الظلم ؛ وهو الإشراك بالله عز وجل ، والكفر به ، حيث قال عز وجل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣] ، ومثله قول الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ . [الأنعام : ٨٢] ، قوله تعالى : ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

٢ ـ العدل مع النفس :

ويدخل في هذا العدل قيام العبد بالأمانة التي كلفه الله عز وجل بها ، وذلك فيما بين العبد وربه ، من الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه ، من غير إفراط ولا تفريط ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العبد لنفسه بارتكابه ما

حرم الله عز وجل مما هو دون الشرك ، أو تركه ما أمر الله عز وجل مما يتعلق به نفسه ، ولا يتعدى إلى غيره .

وهذا النوع من الظلم من أخف أنواع الظلم ؛ حيث إن صاحبه قد يتوب فيتوب الله عليه ، ولو مات عنه بدون توبة فإنه تحت المشيئة ، بينما الظلم العظيم وهو الشرك بالله لو مات عليه فلن يغفر الله له ؛ كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٨] .

وهو أخف من ظلم العباد ؛ لأنه يشترط في التوبة من ظلم العباد رد الحقوق إلى أهلها واستباحتهم منها .

٣ ـ العدل مع العباد :

وهذا النوع من العدل هو الذي يهمنا في هذا الحديث ، والقسمان السابقان ليس هنا موضع تفصيلهما ، ويقابل هذا القسم من العدل ظلم العباد واعتداء بعضهم على بعض ، سواء في القول أو الفعل .

وسنذكر في هذا القسم ـ إن شاء الله ـ بعض مقتضيات ولوازم هذا العدل ، مع الإشارة في أثناء ذلك إلى بعض المواقف المؤسفة ، التي تنافي العدل والإنصاف ، مع ذكر المنهج الشرعي الذي ينبغي سلوكه حيال هذه المواقف .

ويحسن بنا قبل ذكر هذه اللوازم أن نقدم لها بكلام نفيس للإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ حول (منزلة الخُلق) . قال رحمه الله تعالى :

« وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر ، العفة ، الشجاعة ، العدل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة، والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء ، وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء ، والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

والشجاعة: تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى ، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتَحْمله على كظم الغيظ والحلم ؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ، ويَكبحها بلجامها عن النزغ والبطش ، كما قال ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1] ، وهو حقيقة الشجاعة ؛ وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل : يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلقَ الحلم الذي هو التوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس . ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة ، وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

فالجهل : يريه الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن ،

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٠٩) .

والكمال نقصاً ، والنقص كمالاً .

والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ، فيغضب في موضع الرضى ، ويرضى في موضع الغضب ، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام ، ويلين في موضع الشدة ، ويشتد في موضع اللين ، ويتواضع في موضع العزة ، ويتكبر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحرص والشح والبخل ، وعدم العفة والنهمة والجشع ، والذل والدناءات كلها .

والغضب : يحمله على الكبر والحقد والحسد ، والعدوان والسفه .

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق : أخلاق مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخسة واللؤم ، والذل والحرص، والشح وسفاسف الأمور والأخلاق .

ويتولد من إفراطها في القوة : الظلم والغضب والحدة ، والفحش والطيش .

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر أولاد غية كثيرون ، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً ؛ فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قُهِر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قُهِر صار أذل من امرأة ؛ جبان عن القوي ، جريء على الضعيف ؛ فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً .

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود : الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع : الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو»[1] اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٨) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط. دار الكتاب العربي.

من لوازم العدل ومقتضياته

هذا الباب هو بيت القصيد من هذا البحث ؛ لأن المقصود من إثارة هذا الموضوع ، هو التعرض للجوانب العملية التي يفرضها العدل على المسلم ، وخاصة في واقعنا المعاصر ، ومانشأ فيه من تفريط في هذه الجوانب ، ونقتصر فيها على ما يلي :

١ـ التثبت من الأمر قبل الحكم عليه :

إن من العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر أو ظاهرة ، قبل الحكم عليها ، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام ، وقبل التثبت التام منه ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى لنا في سورة الإسراء وفي آية واحدة المنهج الصحيح، الذي ينبغي سلوكه في مثل هذه الأمور ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وحول تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى :

« قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول : لا تقل . وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وقال محمد بن الحنفية : يعني : شهادة الزور. وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم

والخيال، كما قال تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] »[١] اهـ.

وحول ظلال هذه الآية ، قال سيد قطب رحمه الله تعالى :

« والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة ، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾، وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام عن المناهج العقلية الجافة .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها ؛ هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ،ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد.

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش

---

(١) تفسير ابن كثير ، جـ ٤ ص٣٠٧ ، ط. دار الفكر .

الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أوحادثة .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، ومالم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي ، أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « **إياكم والظن فإنه أكذب الحديث** »[١] ، وفي سنن أبي داود : « **بئس مطية الرجل : زعموا** »[٢] ، وفي الحديث الآخر : « **إن أفرى الفرى أي يُري الرجل عينيه ما لم تريا** »[٣] .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه والتثبت في استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ، ولا يروي حادثة ، ولاينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ، ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾حقاً وصدقاً . .»[٤] اهـ.

٢ـ العدل في النقد ومعالجة الخطأ :

هذا الجانب من جوانب العدل نحتاج إليه في كل حال من أحوالنا

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٤٣)، ومسلم في البر (٢٥٦٣).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٧٢)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤١٥٨).

(٣) مسند أحمد (٢/ ٩٢) من حديث ابن عمر . وله شاهد عند البخاري في المناقب (٣٥٠٩) من حديث واثلة بن الأسقع .

(٤) في ظلال القرآن ، (٥/ ٣٢٦) ط . دار المعرفة اللبنانية .

الفردية والجماعية ، وذلك في حل مشاكلنا ومعالجة أخطائنا معالجة شرعية تسيطر عليها روح المحبة والإخلاص .

ويجدر بنا أن نذكر هنا المنهج العادل والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ ، وذلك حسبما رسمه لنا من أمرنا الله عز وجل بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه ﷺ ، وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل ، ونكتفي هنا بمثال واحد ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة ، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها ؛ ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ ، رغم شناعته وخطورته :

روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، عن علي رضي الله عنه ، قال : « بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير - وكلنا فارس - قال : «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين** » ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ ، فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها - وهي محتجزة بكساء - فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه .

فقال النبي ﷺ : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » . قال حاطب : والله ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال ﷺ : « **صدق ، ولا تقولوا إلا**

خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال : « **أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم ـ** » ، فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم »[1] اهـ .

من هذه الحادثة نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ، مهما كانت ضخامته :

المرحلة الأولى : مرحلة التثبت من وقوع الخطأ :

وفي هذه الحادثة قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر ألا وهو الوحي ، حيث أوحى الله عز وجل إلى الرسول ﷺ بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة، وأين هي المرأة .

المرحلة الثانية: مرحلة التثبت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ :

وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب : « **ما حملك على ما صنعت ؟** »، وهذه المرحلة مهمة ؛ لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ ، وتنتهي القضية عند هذا الحد ، فإذا لم تنته عند هذا الحد مثل ما ظهر في قضية حاطب ، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً لكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب ، وأنه لا زال مسلماً، نقول : إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية ، فإنه يصار إلى :

المرحلة الثالثة : وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ وحشدها إلى جانب خطئه ، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤).

بحر حسناته : وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب رضي الله عنه ؛ حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في قتل حاطب : « **أليس من أهل بدر ؟** » فقال : « **لعل الله اطلع على أهل بدر ،فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم** » .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً جيداً حول هذا الموضوع ؛ حيث قال في رده على من قال : إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء :

« فالجواب : أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه ، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل له مالا يحتمل من غيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث ؛ بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث .

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر : « **وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر النبي ﷺ أنه شهد بدراً ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ؛ فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: « **ما ضر عثمان ما عمل بعدها** »[1] ، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة : « **أوجب طلحة** »[2] .

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شواهد أشار إليها الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٤٠٥ .

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٥). وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٥).

وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ ، وقال : شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، وأخذ بلحية هارون وجره إليه وهو نبي الله ، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه ، وربه تعالى يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى ، والعدو الذي برز له ، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذي به في الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ، ولا تغير في وجهه ولا تخفى منزلته .

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أنه من له ألوف من الحسنات ؛ فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوهما ، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه ؛ فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن كثير

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته ، فأيهما غلب كان التأثير له ، فيفعل بأهل الحسنات ـ الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً ـ من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم »[1] اهـ .

خلاصة ما سبق حول هذا اللازم :

أن العدل في القول والفعل ، ومعالجة الأخطاء لو سلكنا فيها ذلك

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ١٩٢ ، ط٢ المصرية .

المسلك النبوي السابق تفصيله لما وقع كثير من المسلمين فيما وقعوا فيه اليوم من كيل التهم ، والتشهير ، وتتبع العثرات ، والذي لا يستفيد منه إلا الشيطان وأولياؤه ، ولا يفرح الشيطان بشيء كفرحه بالفرقة والاختلاف بين المسلمين ، فقد روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ؛ فيجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت** » قال الأعمش : أراه قال : « **يلتزمه** »[1] .

فإذا كان فرح الشيطان بالفرقة بين الزوجين بهذه الدرجة ؛ فكيف يكون فرحه بالفرقة بين دعاة المسلمين ؟

ولو أن أحدنا إذا سمع شائعة عن مسلم أو طائفة ما فقام بالتثبت منها ، فإنه يصبح أمام أحد أمرين :

إما أن تكون الشائعة لا أصل لها ، وأنها مجرد ظنون وأوهام كاذبة ، فيقضي عليها في مهدها .

وإما أن يكون الأمر صحيحاً بعد التثبت فيصار إلى المرحلة الأخرى ، ألا وهي البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى وجود هذا الخطأ ؛ إما من صاحب الشأن ، إن كان ذلك ممكناً ، أو سؤال من يعرفه ، أو من التمعن فيما كتبه إن كان ذلك مكتوباً . . . إلخ .

وهذا هو مراد الرسول ﷺ عندما قال لحاطب : «**ما حملك على ما**

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٣)، وهو في شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٥٧) ، ط . المطبعة المصرية ومكتبتها .

صنعت؟» وإذا اتضح الدافع المؤدي إلى وجود هذا الخطأ وكان مقنعاً من الناحية الشرعية فإن الأمر ينتهي عند ذلك ، وإن لم يكن مقنعاً ؛ فإنه يصار إلى المرحلة الثالثة، ألا وهي النظر إلى حسنات هذا الشخص وبلائه وجهاده، لعل له حسنات عظيمة ينغمر فيها هذا الخطأ ويصبح ضئيلاً ، في الوقت الذي يسعى لتعديل الخطأ والمناصحة فيه بمحبة وإخلاص وحكمة .

ولعله قد تبين لنا الآن من الحديث حول هذا اللازم المهم - من لوازم العدل - الفرق بين العدل في القول والعمل ، وأثر ذلك في النصيحة والإصلاح والائتلاف ، وبين الاعتداء في القول والعمل ، وما ينتج عنه من تشهير وفرقة واختلاف ، وذلك في وقت نحن معاشر أهل السنة والجماعة بحاجة شديدة إلى الوحدة والائتلاف، لا إلى الفرقة والاختلاف .

٣- الفرح بإصابة الغير للحق والحزن على مجانبتهم له :

ولعل هذا اللازم من أصعب لوازم العدل تحقيقاً ؛ لأنه يمثل - في نظري - قمة العدل والتقوى والورع ، حيث نرى الكثير من دعاة المسلمين اليوم - فضلاً عن عامتهم - إذا رأوا غيرهم قد أخطأوا فإنهم يفرحون بذلك ، حتى يحسبونه عليهم ، بل إنك ترى البعض منهم يتتبع الكتابات والمقالات التي قالها غيرهم ، وهمهم الوحيد هو تتبع العثرات ، والفرح باصطيادها ، في الوقت الذي لو وجدوا خلاف ذلك (من إصابة غيرهم للحق) فإنهم يحزنون لهذه الإصابة ، وهذا - والعياذ بالله - هو الظلم والحقد والحسد ، والذي لا يلتقي مع العدل وحب الخير للناس .

وما أحسن الحكاية التي ذكرها ابن رجب رحمه الله حول هذا الأمر ؛ حيث قال :

« وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له : أنت رجل أعجمي لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته ؛ فبأي شيء تغلب خصمك ؟ فقال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمي ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه ؛ أو معنى هذا ، فقال أحمد : ما أعقله من رجل »[1] .

٤ـ الشهادة للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته :

ومن المواقف المؤسفة التي تنافي هذا اللازم أننا نرى اليوم كثيراً من الناس يفرطون في محبتهم أو كرههم ، فإذا أحبوا شخصاً أو طائفة ما فإنهم يفرطون في هذا الحب ، ولا يعدلون فيه ؛ حيث إنهم لا يرون إلا الحسنات ويغمضون أعينهم عن الأخطاء والسيئات ويبررونها ويؤولونها ، وكأن من أحبوه لا يجوز عليه الخطأ ، وهذا غلو واعتداء في الحب ، قد يؤدي إلى الغلو في الرجال وتقديسهم ، وفرق بين التقدير والتقديس .

وفي مقابل ذلك إذا أبغضوا شخصاً أو هيئة ما فإن هذا الكره ينسيهم كل الحسنات والإيجابيات ، أو أنهم يشككون في نوايا فاعليها ، في الوقت الذي لا يذكرون إلا الأخطاء مع التضخيم والتهويل لها ، ومعلوم ما في ذلك من ظلم واعتداء ومجانبة للعدل والإنصاف ، وما أظن أحداً من المسلمين يوافق على هذا المنهج الجائر ، لكن القناعات النظرية شيء والتزامها في الواقع شيء آخر !! .

بقي أن نعرف أن المنهج الشرعي في مثل هذه المواقف ، هو الشهادة

---

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب ، تحقيق نجم خلف ، ص ٣٢ ، دار ابن القيم .

للمحسن أنه محسن ، ويذكر له ذلك بتجرد وإنصاف ، والشهادة للمسيء بأنه مسيء ، والنصح له في ذلك وتلمس العذر - إن كان ثمة عذر شرعي - لإساءته (كما سبق في المنهج الشرعي لمعالجة الأخطاء) ، والانتباه إلى أن كل بني آدم خطاء ، وكلٌ يؤخذ من قوله ويرد ؛ إلا المعصوم ﷺ ، وأن الاعتدال في الحب والكره من لوازم قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ... ﴾ . [النساء: ١٣٥]

ويا ليتنا نرجع إلى سيرة سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - ، وكيف كانوا في مواقفهم مع المخالفين ! ، وكيف كانوا يقومون الرجال ! ، فلقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن شماسة ، قال : أتيت عائشة أسألها عن شيء ، فقالت : ممن أنت ؟ فقلت : رجل من أهل مصر ، فقالت : كيف صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نقمنا منه شيئاً ؛ إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة ، فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا : « **اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرَفَق بهم فارفق به** »(١) .

ويعلق الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث بقوله : « **وفيه أنه ينبغي أن يذكر فضل أهل العلم ، ولا يمنع منه سبب عداوة ونحوها** »(٢) .

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله ، يقول في ترجمته لشيخ الإسلام ابن

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٨) .

(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/٢١٢) ط . دار الكتب العلمية .

تيمية بعد كلام طويل :

« وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يخطئ ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي ، وخطؤه مغفور له ، كما في صحيح البخاري : « **إذا اجتهد العالم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** »[١] فهو مأجور ، وقال الإمام مالك بن أنس : « كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ » »[٢] اهـ.

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله في كتابه : (الفرق بين النصيحة والتعيير) :

« ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يذكر إسحاق بن راهويه ويمدحه ويثني عليه ، ويقول : وإن كان يخالف في أشياء ؛ فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضاً ؛ أو كما قال . وكان كثيراً ما يعرض عليه كلام إسحاق وغيره من الأئمة ومأخذهم من أقوالهم ؛ فلا يوافقهم في قولهم ، ولا ينكر عليهم أقوالهم واستدلالهم ، وإن لم يكن هو موافقاً على ذلك كله »[٣] اهـ.

ويذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه (سيرة عمر) قول عمر رضي الله عنه : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه »[٤] اهـ.

---

(١) رواه البخاري بنحوه في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٧١٦).

(٢) البداية والنهاية (١٤ / ١٣٩) دار المعارف .

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير ص ٣١ ، ٣٢ . دار ابن القيم .

(٤) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع محمد أحمد عاشور ص ١٢٣ ، دار الاعتصام .

ونختم هذا اللازم من لوازم العدل ببعض آراء ومواقف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من مخالفيه ؛ سواء في الفروع أو الأصول .

يقول رحمه الله في جوابه عن سؤال عن قوله ﷺ : « **تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** »[1] ما الفرق؟ ، وما تعتقده كل فرقة من هذه الصنوف؟ ؛ فقال في معرض جوابه :

« . . . ومما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة ، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقال من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق ، وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد باطلاً بباطل أخف منه .

وهذا حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون ، كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك ؛ ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ؛ بخلاف من والى موافقه وعادى مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين ، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات ، واستحل قتال مخالفه دون موافقه ؛ فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات »[2] اهـ .

---

(١) رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٤٢) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١) وله طرق أخرى وشواهد . انظر الصحيحة (٢٠٣) ، (١٤٩٢) .

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٤٨) .

٥ـ الابتعاد عن النجوى :

إن مما يفرضه العدل على المسلم أن يبتعد عن النجوى التي من شأنها إحزان المسلمين وإثارة العداوة والبغضاء بينهم ، وهي عامل مهم في ترويج الشائعات . يقول الله عز وجل : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء: ١١٤] ، وما سوى ذلك فهو شر وتفريق بين المؤمنين .

والناس إزاء الشائعات التي تثار حول شخص أو هيئة ما، ينقسمون حسب تعاملهم مع هذه الشائعات إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : من يقبل هذه الشائعات على علاّتها ، ويكتمها في نفسه ، ويرتب عليها أموراً ومواقف من غير تثبت ولا تبين .

الصنف الثاني : من يقوم بالتناجي بها بعيداً عن صاحب الشأن فيها ، ومعلوم ما في ذلك من الوقوع في الغيبة ، وإذكاء الشائعات وانتشارها .

الصنف الثالث: من يسارع إلى التثبت من الشائعة ممن أثيرت حوله مباشرة ، ولا يذهب مع الظنون والوساوس النفسية أو المناجاة التي تحزن المسلم.

ولو حاكمنا معاملة هذه الأصناف الثلاثة إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ لاتضح لنا أن الصنف الأول والثاني مخالفان للشرع ، وأن طريقة الصنف الثالث هي الطريقة الشرعية، التي تقوم على التثبت وحب الخير للمسلمين ورعاية حقوقهم وأعراضهم والتماس الأعذار لهم .

وهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في عتاب المسلم لأخيه المسلم ، إذا

وصله من أخيه ما يسوءه .

٦ـ سلامة القلب :

يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ، وقد ورد في تفسير ابن كثير حول هذه الآية : « أن القلب السليم هو السالم من الشرك ، وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن »[١] اهـ .

وعلق القرطبي في تفسيره : « عن عوف الأعرابي قال : سألت محمد ابن سيرين ما القلب السليم ؟ قال : الناصح لله عز وجل في خلقه »[٢] اهـ.

وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »[٣] .

وعلق ابن حجر رحمه الله بقوله : ورواه ابن حبان . . . ، وزاد فيه : «فكان جرير إذا اشترى أو باع يقول لصاحبه : اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناكه ، فاختر »[٤] .

من ذلك يتبين أثر سلامة القلب في العدل مع الناس ، حيث إن صاحب هذا القلب مطمئن البال هادئ النفس يحب الخير للناس ، ويبذل النصح لهم ، وهذه صفات أصحاب رسول الله ﷺ الذين مدحهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٩١) ط. دار الفكر .
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٩١).
(٣) رواه البخاري في الإيمان (٥٧).
(٣) فتح الباري (١/ ١٦٨) السلفية .

ومثل هذا يُلقى له القبول بين الناس ، حتى وهو يرد على الأخطاء والانحرافات ؛ فإنه يصاحبه في ذلك شعور بالشفقة وحب الهداية للغير ، لا مجرد الرد والخصومة والجدال ، كما هو الحال في كثير ممن يتصدى اليوم للمخالفين له أو لشيخه ؛ حيث إن الأمر يصل به إلى الاعتداء في كلامه لمن يخالفه في الفروع التي يسعها الخلاف، لا لشيء إلا لأنه خالفه أو خالف شيخه وكفى .

وخلاصة القول في (سلامة القلب) أنه أصل للَّوازم السابقة كلها ، فبسلامة القلب ، والنصح لله عز وجل في الخلق يتم العدل في جميع الأمور السابقة ، وصاحب القلب السليم لا يؤذي المسلمين ولو آذوه ، ولا ينتقم لنفسه .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله ـ في مدارج السالكين ـ أحد عشر مشهداً فيما يصيب المسلم من أذى الخلق وجنايتهم عليه ، نكتفي بمشهد واحد ؛ حيث قال رحمه الله :

« المشهد السادس : مشهد (السلامة وبرد القلب)، وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه وذاق حلاوته ؛وهو ألا يشغل قلبه وسره بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره ، وشفاء نفسه ، بل يفرغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له، وألذ وأطيب،وأعون على مصالحه.

فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه ؛ فيكون بذلك مغبوناً ، والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرفات السفيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغل والوساوس ، وإعمال الفكر في إدراك

الانتقام؟ »[1] اهـ.

ولقد اطلعت على رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى تلامذته بدمشق ، وفيها تبرز هذه الصفة بجلاء ، ولولا خشية الإطالة لنقلتها بتمامها ، ولكن نكتفي بمقاطع منها ، قال رحمه الله بعد السلام والأشواق إلى تلامذته :

« وتعلمون من القواعد العظيمة ـ التي هي من جماع الدين ـ تأليف القلوب ، واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، ويقول : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف . وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة . . . » إلى أن قال في الرسالة نفسها :

« وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم جميعاً أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً ، لا باطنا ، ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه .

ولايخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول : مشكور ، والثاني : أجره على الاجتهاد ؛ فمعفو عنه مغفور له ،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٠) ، تحقيق : محمد حامد الفقي ـ دار الكتاب العربي .

والثالث : يغفر الله لنا وله ولسائر المؤمنين ، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان كان سبب هذه القضية ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل مثل هذا يعود على قائله بالملام ، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء، وقد عفا الله عما سلف . . . » إلى أن قال رحمه الله في الرسالة نفسها :

« فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي ، أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ،وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي ، والذين كذبوا وظلموا منهم في حل من جهتي »[1] اهـ.

٧ـ الصدق والوضوح :

إن هذا اللازم يعتبر أيضاً سبباً من أسباب حصول العدل ؛ فهو نتيجة وسبب في نفس الوقت ؛ لأن الصدق يؤدي إلى العدل ، والعدل يستلزم الصدق والوضوح في الأقوال والأفعال ، وأردت من إيراد هذا اللازم الإشارة إلى ما يقع في زماننا هذا من الأساليب الغامضة في تعامل المسلمين بعضهم مع بعض ، وعدم الوضوح في المقاصد والوسائل ، وهذا كله يؤدي ـ شِئْنا أم أبينا ـ إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح .

وهذا الغموض وعدم الوضوح وسوء الظن بالمسلمين، من الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى إذكاء العداوة والفرقة بين المسلمين ، وعدم اطمئنان بعضهم إلى بعض ، في الوقت الذي يفترض الصدق في المسلم، وألا يساء الظن به ، أو أن مراده من كلامه كذا وكذا . . . إلخ.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ٥١ـ٥٧).

ولقد مرت بنا الطريقة التي عالج بها الرسول ﷺ خطأ حاطب رضي الله عنه ، وكيف أنه ﷺ عندما سمع من حاطب عذره ، قال : «**صدق، لا تقولوا إلا خيراً** »، ولم يذهب إلى سوء الظن به ، واتهامه بالكذب ، أو اللف والدوران كما يقولون .

إن الصدق منجاة وخير كله في الدنيا والآخرة ، والصدق في الحديث أمر لازم لاطمئنان القلوب بعضها إلى بعض ، وطريق إلى التآلف وحصول البركة ؛ فلقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا** ، أو قال: **حتى يتفرقا ؛ فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** »[1] .

فإن كان الصدق سبباً لحصول البركة للمتبايعين على سلعة ، والكذب والكتمان يمحق بركة بيعهما ، أقول : إذا كان الأمر كذلك في أمر من أمور الدنيا؛ فكيف يكون الحال إذا كان الصدق أو الكذب على أمر من أمور الآخرة ؟ ، لأن الدعوة عبادة يراد بها الدار الآخرة ؛ فلأن يصدق هذا الحديث على ذلك من باب أولى ، والتجربة أكبر شاهد ؛ حيث إن الصدق والوضوح بين أصحاب الدعوة وحسن الظن فيما بينهم ينتج عنه نتائج طيبة ، ويبارك الله عز وجل في جهودهم وتعاونهم ، والعكس بالعكس ؛ فإن الكذب والأساليب الملتوية لم ينتج عنهما إلا الفرقة وسوء الظن وتشتيت الشمل .

وهنا يجب إيضاح أن لا تعارض بين وجود الصدق والوضوح وبين

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في المساقاة رقم (١٦٠٧) .

الكتمان؛ فإن كان المرء ولابد متحدثاً فليكن صادقاً وواضحاً وإلا فليصمت.

ثم إننا نقصد بكل ما سبق أهمية هذا اللازم بين المسلمين بعضهم مع بعض ، أما الكافرون والمنافقون ؛ فإن التعامل معهم يجب أن يكون بحذر ، وتقدير ما ينبغي أن يقال ، وألا يطلعوا على أسرار المسلمين بحجة الصدق.

* * *

الخاتمة

ولعلنا في هذه الخاتمة نجمل ما تم تفصيله في ثنايا هذا البحث ؛ حيث طرحت فيه النقاط التالية :

١ ـ إن الإنسان في طبيعته كان ظلوماً جهولاً .

٢ ـ إن الأمانة العظيمة التي أشفقت من حملها السموات والأرض لن يستطيع أن يحلمها الإنسان إلا بالعلم والعدل .

٣ ـ إن العدل كلمة يراد بها التوسط في الأمور ، وذلك بين الإفراط والتفريط ، فالجافي والغالي كلاهما قد جانب العدل .

٤ ـ للعدل صور كثيرة مردها إلى ثلاثة أقسام : العدل الأعظم وهو توحيد الله عز وجل ، والعدل مع النفس ، والعدل مع العباد .

٥ ـ كان التركيز في هذا البحث على العدل مع العباد ؛ وذلك للحاجة الماسة إليه ، وخاصة في هذا العصر الذي بغى بعض الناس فيه على بعض .

٦ ـ للعدل مقتضيات ولوازم كثيرة لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث ، وقد ركزت على أهمها ، وخاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الناس من إقالة العثرات ، وإحسان الظن ، وقطع الطريق على الشيطان الذي يسعى إلى إيجاد الإحن والأحقاد والظلم بين المسلمين .

٧ ـ إن سبب الاختلاف والتفرق بين المسلمين يرجع إلى أمرين مهمين :

أ ـ الجهل الناشئ من فقدان أو قلة العلم بدين الله ، والذي يؤدي بدوره إلى الأخذ بالباطل محسوباً أنه هو الحق .

ب ـ الظلم الناشئ من الهوى وعدم العدل والإنصاف ، ومثل هذا قد يعلم صاحبه أن الحق مع مخالفه ، ولكن التعصب والهوى ومجانبة العدل يجعله يصر على الباطل ، ولو علم أنه باطل .

٨ ـ إن رفع الجهل عن النفس يتم بتعلم دين الله عز وجل وحدوده ، كما بلغها الرسول ﷺ لأصحابه وسار عليها سلف الأمة من التابعين وتابعيهم من أئمة هذا الدين وأعلامه .

أما رفع الظلم والتحلي بالعدل والإنصاف؛ فإنه لا يتم بالتعلم فقط ، فقد يعلم الإنسان الوسائل ولا يعمل بها .

وللعدل مفاتيح وعلامات وتباشير أجملها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :

« وإن للعدل أمارات وتباشير ؛ فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهين ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ؛ فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار : ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد : أخذ الحق من كل أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً »[1] اهـ .

---

(١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه ، جمع : د. محمد أحمد عاشور ، ص٦٢ ، دار الاعتصام .

وخلاصة القول في مفتاح العدل أنه تقوى الله عز وجل ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ؛ حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨] ، حيث إنه لا مفتاح للعدل إلا بالتقوى ، والتقوى فقط .

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الخاتمة أنصح بها نفسي وإخواني الدعاة من أهل السنة ، بأن نتقي الله عز وجل ، ونصلح ذات بيننا ، وأن نلزم أنفسنا بالعدل في أقوالنا وأعمالنا ، وأن نحذر من نزغات الشيطان ، فكما أسلفت في ثنايا البحث إن أعظم فرحة للشيطان يوم أن يفرق بين المسلمين ، ويخالف بين كلمتهم ، فهو ما يفتأ يسعى للتحريش بالمسلمين ، كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم** »[(١)] .

وإن الواجبات الملقاة على أهل السنة اليوم أكبر وأضخم مما تستطيعه طائفة واحدة من طوائف أهل السنة ، فإن لم يَسْعَ المصلحون والمتقون من أهل السنة لجمع الكلمة وتأليف القلوب ؛ فإن فساداً كبيراً لا شك نازل ؛ كما قال عز وجل : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣] ؛ أي إلا يوالى المسلمون ويعادى الكافرون تكن فتنة للناس[(٢)] .

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨١٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٤) ، ط . دار الفكر .

أسأل الله عز وجل أن يجمع دعاة الإسلام على الحق ، وأن يؤلف بين قلوبهم ويسدد آراءهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *